رحلات في ديار الشام في القرن (الثاني عشر الهجري)

اردان حلة الاحســـان في الرحلة إلى جبل لبنان (١)

لمصطفى البكري الصـــديق

(١٠٩٩هـ - ١١٦٣هـ - ١٦٨٧م - ١٧٤٨م)

للأستاذ أحمد ســـامح الخالدي

لا شك أن الدافع لرحلة الشيخ هذه وغيرها من الرحلات، ولتنقلاته المستمرة في المدن والقرى، إنما كان حرصه على نشر الطريقة الخلوتية والاتصال بأعوانه ومريديه. ولقد كان الشيخ مكثاراً في النظم والنثر، بل إنه ليؤلف الكتاب أو الرسالة في أيه مناسبة. ولا شك أن نظمه ونثره يمثلان عصره أصدق التمثيل فقد امتاز هذا القرن بالسجع، والركاكة في الأسلوب، كما يتبين من دراسة رجال هذا القرن في كتاب أعيان القرن الثاني عشر للمرادي.

ولقد انتقل الشيخ من دمشق إلى القدس وتزوج فيها وتتلمذ على شيوخها وامتد نفوذه فيما بعد إلى جميع أنحاء فلسطين، وإلى سوريا بل وحتى إلى مصر والعراق.

وقد ساهم في الحياة العامة في فلسطين فعمر الحرم القدسي خلوة، وبئراً، وحاول أن يصلح البراغثة شيوخ بني زيد وكانوا قد اختلفوا فيما بينهم، كما شوق الحاج حسن بن مقلد الجيوش لزراعة الأشجار المثمرة حول قبة الصحابي سراقة في (كور) من أعمال قضاء بني صعب.

ويستدل من رحلته هذه أن حالة الأمن لم تكن مرضية في زمنه، فقد جاء ذكر تعدى الأعراب على القوافل بين الخليل وعسقلان، كما تعدوا على الشيخ القافلاني مفتي الديار القدسية، فسلبوه بعض ثيابه وما كان يحمل من الكتب.

ويلاحظ أيضاً أن الشيخ كان يغير طرق سيره، فبدلا من أن يسلك الجادة السلطانية بين القدس والخليل ماراً ببرك سليمان، غير طريقه إلى بني حسن وهي ناحية إلى الجنوب الغربي من القدس مخافة قطاع الطريق.

ويستدل من وصف الشيخ لبعض المدن التي اجتازها أن (حاصبية) كانت حينذاك قرية يقطنها الدروز وهي الآن مدينة كما أن مدينة حيفا التي بلغ عدد سكانها الآن مئة وخمسين ألفاً، لم تكن سوى قلعة حصينة على ساحل البحر المتوسط. ووصفه هذا لحيفا ينطبق على وصف معجم البلدان، بعض الشيء. فقد جاء في معجم البلدان (ج ٣ — ص ٣٨٢): «حيفا غير ممدود، حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا، لم يزل في أيدي المسلمين إلى أن تغلب عليه كندفرى الذي ملك بيت المقدس سنة (٤٩٤ هـ) وبقى في أيديهم إلى أن فتحه صلاح الدين في سنة (٥٧٣ هـ) وخربه».

ويصف لنا الشيخ زيارته أكثر من مرة للخليل، ويذكر كرومها، ويستدل من هذا أنها كانت محاطة بكروم العنب وهو حالها اليوم.

ويذكر الشيخ فيما يذكر أن الأمر السلطاني صدر باسم والدته لتعمير قناة الماء إلى الحرم القدسي. وهذه القناة ليست حديثة فقد جاء في الأنس الجليل ج ٢ — ص ٣٨٧ عند ذكر الأمير تنكز الناصري نائب دولة المماليك في الشام «وهو الذي عمر قناة الماء الواصلة إلى القدس، وكان ابتداء عمارتها في شوال سنة (٧٢٧ هـ) ووصلت إلى القدس ودخلت إلى وسط المسجد الأقصى في أواخر ربيع الأول سنة (٧٢٨ هـ) وعمل البركة الرخام بين الصخرة والأقصى» وتعرف هذه الآن بالكأس، ويظهر أن هذه القناة خربت، فعمرت مدة ثانية كما يذكر الشيخ. وهذه القناة تمتد من برك سليمان إلى الحرم وتسيل بالانسياق لعلو برك سليمان عن الحرم القدسي، وهي من حجر.

والظاهر أن الشيخ كان أباً عطوفاً، فقد سر كثيراً بابنته (علما) وحزن حزناً عميقاً عند وفاتها وهي لا تزال طفلة، وقد رزق ولده محمد كمال الدين في القدس. ولقد كان الشيخ يزور مقام (علي بن عليل) وهو من نسل عمر بن الخطاب، ويعرف بسيدنا علي بن عليم عند العامة، وله موسم يقصده الزوار كل عام.

ويسجل الشيخ بألم ظاهر في هذه الرحلة وفاة قطبين عظيمين

(١) مخطوط في خزانة الكتب الخالدية

تتلمذ عليهما ، وكان يحترمهما أبلغ احترام أولهما الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي القطب الكبير وصاحب الرحلة إلى القدس سنة (١١٠١ هـ) ويعتبر الشيخ من أخلص تلاميذه ، والثاني الشيخ محمد الخليلي مفتي الشافعية في الديار القدسية ، والصالح العمراني ، والمؤلف القطب ، وهو من أبرز رجال القرن الثاني عشر في فلسطين .

وفي الرحلة فوائد أخرى على رغم ركاكة الأسلوب ، وتكرار السجع الممل ، وانصراف الشيخ إلى نزعته التصوفية القوية ، وفيها بعض معلومات عن أصل سكان (الطيبة) من أعمال طولكرم ، ونسب البراغثة في جبل القدس ، وعن وقف قرية (عابور) في بني زيد للحرمين الشريفين ، وما إلى ذلك .

ومن لطائف المصادفات أن يحضر إلى الديار القدسية الرحالة المصري الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي الدمياطي ، سنة (١١٤٣هـ) وينزل عند الشيخ ، ويأخذ عنه الطريق ثم يصف لنا لقاءه الشيخ في رحلته المخطوطة ، « سوانح الأنس في رحلتي لوادي القدس» وقد أثبتنا رأي اللقيمي في الشيخ البكري .

وخلاصة القول أن هذه الرحلة المخطوطة التي لم تزد معلوماتنا كثيراً عن لبنان الجنوبي ، شيقة برغم جميع مآخذها ، فإنها تمثل القرن الثاني عشر ، وهو قرن تنقصنا عنه المعلومات والمصادر الوافية ، فتصف لنا بعض نواحي الحياة الفكرية ، وبعض أحوال البلاد القدسية وعمرانها ، ورجالها ولو كان أكثر من اجتمع به الشيخ من رجال التصوف والزهد .

ويظهر أن الملاريا (الحمى الربعية) أصابت الشيخ لتردده على مقام سيدنا علي ، وهي منطقة موبوءة بهذا المرض إلى عهد قريب ، فضايقته وأنهكته ، وحاول أن يتخلص منها بالدعاء والالتجاء إلى مقام سيدي داود !

ونحن بعد ذلك نترك للشيخ أن يتكلم ، إذ أنه بعد أن ختم الرحلة الرومية وبدأ في المراقية أراد أن يبتديء برحلة بقاعية لبنانية فأسماها (اردان حلة الإحسان في الرحلة إلى جبل لبنان) فيقول : « اعلم أيها الأخ الواقف على هذه المواقف أن هذا الجبل المعظم المبجل المقصود بالزيارة ، جبل مبارك له خواص عند الخواص أهل الإشارة ، إذ من المعلوم ، لدى أرباب الفهوم والاختصاص ، إن الله تعالى اختص بعض الأمكنة والأزمنة والأشخاص ، وقد طرق السمع ، من أهل المعرفة والسمع ، أن لهذا الجبل ، الذي يزق في الحبل ، حالا ظاهر الرجحان ، وإنما باهر البرهان ، وأن كل من حوله ممن له قدم في الولاية يأتيه زائراً ولو بالروحانية وهذه على فضيلته آية »

وكان كثيراً ما يجول في الخاطر ، ويتكرر وروده على الضمير الخاطر ، أن يشد الشيخ الرحل على عيس السرى إليه ، لعله يحظى من بر أهله وما لديه ، ولكن الأقدار كانت تمنع . ولما آن الأوان ، قصد البقاع العزيز ، ملتجئاً لحمى المهيمن الملك العزيز ، وبعد ما ودع الخلان والأصحاب والإخوان والأخدان يقول :

« وتوجهت مستعيناً بالديان ، نحو الدعاس ، مع رفقة حسان يوم الخميس سابع عشر ذي القعدة عام أربعين ومائة وألف (١٧٠٧ م) . وقصدت حي الصالحية ، وقرأت الفاتحة لسكانها أهل الرتب الفلاحية ، ثم صعدت إلى جبل قاسيون ، وحصلت نفحة إقبال من هداة فتحه وتجاوزت قبة السيار الشائقة ، التي تحت قبة النصر الشاهقة ومن رافقنا لهذه الزيارة والقدس الفياح ، الصديق الشيخ عبد القادر الموصلي ثم البغدادي السياح ، المنتمي للعصابة السهروردية المتصلة أنسابهم بالأسرة الصديقية ، والأخ السيد محمد السلفيتي العباسي ، المحب الآسي والصديق المواسي ، أول آخذ للطريق في الخطرة الأولى ، وقد ذكرته في الخمرة الحسية في الرحلة القدسية ، وفي غيرها من الرحلات الأنسية ، وكان الأخ أكبر مساعد ومعين على إظهار الطريق في الديار القدسية ، وكنت قبل هذا التوجه الطويل المسافة أذنت له بلبس الكسوة والإرشاد لطلاب الإضافة . وممن صحبني أيضاً زوج الوالدة ، لا برحت في الجنان خالدة ، والأخ من الرضاع ، الحاج إبراهيم جميل الأوضاع ، المستقيم على قدم الحب من الصغر ، كأنما نقش على فؤاده نقش الحجر ، فلم يتغير بتوالي الزمان ، لأنه ذو باع فيه طويل ، قد عرف بابن الطويل في النسب . وممن صحبني أيضاً الأخ الواعي ، الشيخ محمد البقاعي ، خفيف الحركة ، ثقيل البركة ، لجملته للنسبة الوطنية دليل الركاب ، ومررنا نتملى بشهود وجوه أولئك الأحباب . ولما أظلنا وادي بردا [بردى] الظليل ، قابلنا بعده أول قتيل هابيل النبيل ، فقرأنا له الفاتحة .

وأنشدت الدليل قرب الديماس : مرتجلاً بقصيد مفيد الإيناس :

قد أتينا لقرية الديماس نرتجى رشف خمرة الإقباس

ونزلنابها مع الرفاق (زاوية بني تغلب) وبعد أداء الصلاة الوسطى وختام ورد العصر البسام ، ورد كتاب من الصهر الهمام الشيخ إسميل العالم النبيل القدام ، مصدراً له بأبيات جسام وهي :

فرقة للحبيب يوم الخميس أورثت في الجنان رعب الخميس

أهل ودى زاد التلهف مني حيث فارقتكم لدى التفليس

وتوجهنا للبقاع وهو جمع بقعة موضع يقال له بقاع كلب قريب من دمشق . قال في المراصد : وبهذا البقاع قبر إلياس ولما وصلنا باب وادى القرن أنشدت مواليًّا :

لقد قرنا الصفا بالبسط أيا قرن لما أتينا صباحا باب وادى القرن

ومذ عذول الحشا قد غاب ذاك القرن

دام التصافى لى مابعد نفح القرن

وجاءنى الأخ البقاعى ، بشيح [١] نشره عابق للبشر داعى ، فكتبت وأنا على الدابة أسمه ما يجرى على القرطاس :

يا خليليَّ للبقاع فسيحا تريا مربعاً هناك فسيحا

واسقيانى كأس المدام لديه وانشقانى فيه خزاماً وشيحا

ولما أشرفت على الجبل ، إذ زال الخبل قلت :

يا ساكنين السفح من لبنان هيجتمو بسناكم أشجانى

حولتمو قلباً أحب وقالباً فأتيتكم أسعى على أجفانى

وقد اقتفينا من الدليل العزيز الجليل الأبر ، الأثر ، لأنه أسلم ، وما زال يصعد بنا العقاب التى هى صعود للجوزاء بلاسلم ، لكن راقيها بإمداد من حل فيها للعناية والرعاية والحماية والكفاية يسلم ، حتى أتينا قرية نبي الله زريق فقلت :

يا نديميَّ من منام أفيقا علَّ أن تلتقيا لوصل طريقا

وانهجا منهج الحداة وسيرا للمعالى كى تنشقونى عبيقا

ثم زرنا فى القرية مقاماً لخضر أبى العباس ، وسبب تعدد مقاماته ، شهوده فيها لكثرة تطوراته ، وهذه علامة على حياته ، خلافاً لمن دندن بوفاته . وللدليل قريب فى القرية ثغره بسام ، أنزلنا لديه فقدم ما قدر عليه من إكرام ، وعزمنا فى الصباح أن بنزل سهل البقاع ، فرأيت مناماً دل على توديع السكان ، من ذلك النزل لعارض حر وعدم إركان ، فأتيت مع الرفاق إلى تل مشرف ، وأهديت النازلين من عهد وأركان الفوائح ، وقلت :

يا سراة نحو العزيز الخفير بلغوه سلام صب حقير[١]

خبروه بأنني مستهام فى هواه بحرقة وزفير الخ

وبعد أن ودعنا المضيف بالأمس ، جزنا إلى الشيخ يعقوب المنصورى ، وهذا الذى صنع البركة الإبريزية للملك الرشيد نور الدين الشهيد فسمل منها أوقافاً على عد عين تورا وزيد ، ومنها قاعة الفقراء فى الربوة بين تورا وزيد ، وزرنا أولاد شيخنا الجيلانى ، ثم تقدم بى الدليل بعد الزيارة إلى قرية (كوكب) قاصداً فيها صلة رحم وقرب أحباب ، فأنشدته مرتجلا لما غيم الكدر انجلى :

إننى فى سفرتى هذى التى فاق محياها سراجاً كوكبا

لم أزل أرق العلا مع رفقتى ولهذا قد رقينا كوكبا

وسرنا إلى (القنبة) ، بهمة طيبة الحضور والغيبة ، ولما امتلأت بالسرور المهيبة ، فتقت بالحبور الوفور الجيبة ، قصدنا بجمعنا قرية (حاصبية) فإذا هى قرية كبيرة مملوءة الأكناف بالطائفة الدرزية ، ومضينا للخان ونزلنا لديه ، ومنه جدينا السرى حتى أتينا قرية (ميس) ، الحاملة أهلها لواء ربيعة لا قيس ، الشيمة المائتين بحب الآل أى ميس . وهذه القرية من بلاد بشارة فأنشدت :

جاء ممن أحب ليلا بشارة مذ حللنا يوماً بأرض بشارة الخ

وصعدنا محلها العالى ذو الامتناع ، ونزلنا عند صديقنا القالى على بقاع ، وأمسكنا لديه معاملا بإكرام ، وسرنا للدير والقاسى[٢] بأنس تام ، ونزلنا عند أحبابنا فى القاسى ، وحبب لى أن أمدح أهل الدير والقاسى ، لأنهم أهل قرب وقرابة كل منهم لا يرى تشفيعاً فقلت :

إذا رمت أن يسقيك سمان فى الدير

أنخ جمل الترحال فى القاسى والدير الخ

وأشرت بصالحهم لصالح أكبر أولاد مراد فإنه صالح .

(لها بقية) أحمد سامح الخالدى

(١) الشيح بالكسر نبات منه أصفر الزهر يشبه السذاب فى ورقه وهو الأرمنى ومنه أحمر غليظ الورق وهو التركى ، وكلاه طيب الرائحة ومنه عربى ينبت فى بلاد العرب ترعاه المواشى .

(١) ممن ذكرهم الشيخ فى قصيدته ، شيث ، وإيليا ، ونوح ، وإلياس والنهرى ، وإيلون من الأنبياء ! وسيدى مبارز ، والرماق ، والحداد ، والمنصورى ، وأولاد الجيلانى .

(٢) هى قرية دير القاسى من أعمال صفد الآن .